

(٢٢) تربية هنرى آدامز :

بقلم : آلن جوتمان

فى مجلة « إندبرة ريفيو » عدد أكتوبر ١٨٤٠ نشر جون ستيوارت مل تحليلاً مطولاً للجزء الثانى من الترجمة الإنجليزية للدراسة الكلاسيكية التى كتبها أليكسس دى توكفيل بعنوان « الديمقراطية فى أمريكا » وناقش مل هذا الاتجاه المتفائل لمعظم الأمريكين ، وميلهم إلى الاعتقاد فى التقدم ، وافترضهم أن التغيير كلمة مرادفة للتقدم والتحسين. وقد أشار شرح مل لهذا الإيمان بالتقدم إلى العوامل المثالية والمادية . كتب يقول :

« لا بد أن يتوارى احترام الآراء القديمة حيث يتقدم العلم والمعرفة بسرعة ؛ وعندما يصبح الناس بصفة عامة مهتمين بالتاريخ الحديث لمعظم الاكتشافات الطبيعية الهامة - فإنهم يملكون المبرر الذى يشكل لهم رأياً ينظر إلى أجدادهم ببعض الاحتقار . إن مجرد الثمار الملموسة للتقدم العلمى فى مجتمع ترى ، والتحسينات الميكانيكية ، والآلات البخارية ، والطرق الحديدية - كل هذا يثير الشعور بالإعجاب تجاه العصر الحديث ، والإحساس بعدم الاحترام للعصور القديمة . وهو إحساس يتغلغل حتى إلى الطبقات التى لم تحصل على أى نصيب من التعليم . » . وباختصار فإنه كان فى أمريكا افتراض منتشر على نطاق واسع يقول : إن الابتكارات التكنولوجية دليل على التقدم الأخلاقى والسياسى . لقد كان افتراضاً سهلاً ، ويبدو أن نظرية

داروين في التطور كانت تسانده ، وكان هذا هو الافتراض الذي صارع هنري آدامز من أجل دحضه .

إن سيرته الذاتية « تربية هنري آدامز » ترجع إلى زمن - إذا لم يكن ذهبياً - فقد كان على الأقل أفضل من العصر الذهبي الذي عاش فيه . فقد رأى الفساد في الولايات المتحدة في فترة السبعينيات من القرن التاسع عشر ؛ مما جعله يكتب باشمئزاز ينتمى إلى آلهة الأولمب . يقول : « إن تقدم التطور من الرئيس واشنطن إلى الرئيس جرانت كان كافياً وحده لكي يثير حيرة داروين » وبسبب احتقاره لكل ما كان معظم الأمريكيين يقصدونه « بالنجاح » - فقد كان فخوراً أن يدعو نفسه فاشلاً !

كان ماهراً ما كراً بالدرجة نفسها من الفخر والكبرياء . وكان المقلون من شأنه على أهبه الاستعداد دائماً للإشارة إلى التناقض بين حياته وحياته أبيه وجده وجد جده ، لكن آدامز سبق نقاده ، وجعل من هذا التناقض نفسه أحد الخطوط الفكرية الرئيسة في سيرته الذاتية . فيقول لنا في الفصل الأول بعنوان « التربية » : إنه كان يجلس - عندما كان يحضر قداس الكنيسة في طفولته - مباشرة خلف جده جون كوينسي آدامز : الرئيس السادس للولايات المتحدة ، ومباشرة تحت (لوحة) تذكارية لجد جده جون آدامز : الرئيس الثاني للولايات المتحدة . وكانت الكنيسة نقطة ثابتة في حياته المبكرة ، أما وصوله التالي إلى كرسي الرئاسة فكان نقطة أخرى . وكما نخبزنا مستخدماً ضمير الغائب : « قال البستاني الآيرلندي ذات مرة للطفل : إنك تعتقد أنك ستصبح رئيساً أنت أيضاً. وكانت الملاحظة العرضية قد تركت أثراً عميقاً إلى هذا الحد في عقله » ويستمر آدامز فيقول : « تلك الملاحظة لم ينسها قط ، ولم يستطع أن يتذكر على الإطلاق متى فكر في هذا الموضوع ؟ فقد كانت فكرة جديدة بالنسبة له أن يكون هناك أى شك في أن يصبح رئيساً للجمهورية ، فما كان في الماضي يجب أن يستمر على ما هو عليه » .

وكأى طفل افترض أن موقفه عادي جداً ، وليس فيه ما يثير الدهشة ، على أساس أن أجداده كرؤساء للجمهورية كانوا حقيقة لا تقبل الجدل . وعندما تقدم به العمر ونظر إلى حياته الماضية أدرك كم كانت طفولته غير عادية ! وتبرز الفقرة الأولى في « تربية هنري آدامز » المنظر بأسلوب فني مميز ، ويبدو المكان ذا أولوية على الزمان ، في حين يعلو الزمان فوق الذات الفردية . يبدأ الكتاب كالآتي :

« تحت ظل بيت الولاية في بوسطن ، هذا البيت الذي يدير ظهره لبيت جون هانكوك -
الممر الضيق المسمى بشارع هانكوك . فهو يمر بشارع بيكون ثم يخترق أراضي بيت الولاية إلى
شارع ماونت فيرنون على قمة تل بيكون ، وهناك في البيت الثالث الذي أسفل ماونت فيرنون ،
في ١٦ من فبراير ١٨٣٨ - ولد طفل وتم تسميته على يدى عمه راعي « الكنيسة الأولى » على
مبادئ الوحدةانية السائدة في بوسطن ، وذلك باسم هنرى بروكس آدامز » . ويستمر في مناقشة
كل الأفكار المتداعية والتي يسميها « استعمارية » و « سحيقة » : أى أنه يقصد أنها تنتمي إلى
فترة الاستعمار وعصور ما قبل التاريخ حين سكن الإنسان الكهوف . ويوازي مولده بمولد
إنسان افترض وجوده في الخيال ويدعى إسرائيل كوهن . « فقد ولد في أورشليم تحت ظلال
المعبد وتمت طهارته في المحفل تحت رعاية عمه الكاهن الأعظم » .

وعلى أية حال فقد كانت بوسطن جزءاً من كل أكبر منها قليلاً . وفي الصيف عاش هنرى
آدامز في شبابه مع أجداده في مدينة كوينسى القريبة : ويدور الفصلان الأولان في « تربية
هنرى آدامز » حول التناقض بين بوسطن وكوينسى . وترمز الأماكن إلى الاهتمامات التي
سيطرت على حياة آدامز بطولها .

فقد كتب يقول : « كانت المدينة معتقلاً شتوياً : المدرسة والقواعد والنظام . . . كانت
المدينة هي القيود والقانون والوحدة . أما الريف الذي على بعد سبعة أميال فقط فقد كان بمثابة
الحرية والتنوع والخروج على القانون والمتعة التي لا حدود لها والتابعة من مجرد الانطباعات
الحسية التي تمنحها الطبيعة مجاناً ، والتي يتنفسها الصبية دون أن يدركوا هذا . . . أما الصيف
فكان الطبيعة في حللها المتعددة ، في حين لم يكن الشتاء سوى المدرسة » . وكانت الوحدة
والتعدد من المصطلحات الأساس في فكره .

وبالرغم من أن المدينة والريف كانا مكانين مختلفين مرتبطين بفصول مختلفة - فقد شكلا
جزءاً من وحدة أكبر هي وحدة الزمن . وكما استوعب بوسطن وكوينسى فقد كانت كلتاها
جزءاً من القرن الثامن عشر . عندئذ وبكل عناصر المفاجأة الدرامية تأتى الحقائق التكنولوجية
التي أشار إليها جون ستوروات مل عن حق . وفي الصفحة الثالثة من كتابه يكرر آدامز كلمة
troglodytic أى كل ما ينتمي إلى سكان الكهوف في العصور السحيقة ؛ كما يعزف نغمة
الاغتراب :

« كان هو وبوسطن مدينته التي تنتمي إلى القرن الثامن عشر بكل صفات سكان الكهوف في العصور السحيقة - قد عُزِلَا فجأة عن العالم - انفصلا إلى الأبد - بعملية لا تمت إلى المشاركة الوجدانية بصلة : فقد كان هذا نتيجة لافتتاح الخط الحديدي بين بوسطن وألباني ، وظهور أول بواخر كانارد في الخليج ، والرسائل التلغرافية التي حملت من بالتيمور إلى واشنطن الأبناء التي تقول بأن هنرى كلاي وجيمس ك. بولك تم ترشيحها لرياسة الجمهورية . كان هذا في مايو عام ١٨٤٤ ؛ وكان يناهز السادسة من عمره ؛ وكان عالمه الجديد جاهزاً رهن إشارته ، ولم تر عيناه سوى لمحات من العالم القديم ! » .

وإذا كان قد ترعرع طبقاً لتقاليد القرن الثامن عشر - فقد كان عليه مواجهة القرن التاسع عشر . وكثيراً ما أكد في سيرته الذاتية أن تربيته كانت خاطئة وغير مناسبة . وعلى أية حال لم يكن الأمر يستغرق منه ثلاثين عاماً ، ولم يستمر حتى إدارة الرئيس بوليسيس س . جرانت ، وذلك لكي يدرك مدى اغترابه عن التيار العام للحياة الأمريكية .

وفي عام ١٨٤٤ كان صغيراً جداً حتى يدرك دلالة العصر الصناعي . وفي عام ١٨٥٠ عندما أخذه أبوه تشارلز فرانسيس آدامز إلى واشنطن استطاع أن يجمع لنفسه للمحات الأولى للفساد السياسى ، بدأ الاهتمام الجاد عنده بأن أهالى بوسطن « لم يحلوا معضلة الكون » على حد قوله . وكانت حلول الوسط فيما يختص بالرق قد أثارت حيرته واضطرابه . وكان أكثر إثارة لاضطرابه - أن الرق بدا كأنه جزء لا يتجزأ عن التاريخ الأمريكى . وقد كان جورج واشنطن نفسه يمتلك عبيداً من الزنوج . وكان الطريق إلى ماونت فيرنون التي زارها آدامز زائحاً بالفقر ، وكانت الطرق الفقيرة بالنسبة لمواطن نيوإنجلاند تعنى الأخلاقيات الفقيرة . فقد كتب يقول : « كان الرق شيئاً سافلاً شريراً ، كما كان السبب أيضاً في سوء هذا الطريق . . . لكن في نهاية الطريق وكحد لنتاج الجريمة وقف كل من ماونت فيرنون وجورج واشنطن . . . ولم يخطر على باله إطلاقاً أن يسأل نفسه أو أباه عن كيفية معالجة المشكلة الأخلاقية التي انتشرت جورج واشنطن من كل هذه السفالة والآنحطاط ! »

وعلى كل حال فقد كان هدف التربية هو الإجابة عن مجرد مثل هذه الأسئلة التي طرحها الشاب هنرى آدامز ، لكن تربيته لم تمدّه بأية إجابات . فقد ذهب إلى كلية هارفارد في عام ١٨٥٤ ثم إلى برلين في عام ١٨٥٨ . ومن باب السخرية والتهمك فقد تلقى معظم معلوماته ومعارفه عندما كانت علاقته بالدراسة المنتظمة واهية للغاية : فعلى سبيل المثال عندما جلس في

حديقة لشرب البيرة في برلين وأصغى إلى موسيقى بيتهوفن أدرك كم كان محروما من هذه التجربة الحسية !

وفي إيطاليا عام ١٨٥٩ اكتشف آدامز تناقضات أكثر ، وحصيلة معلومات أكبر لا يمكن أن تساير المفهوم التقليدي للتقدم « لم يكن من الممكن إخضاع روما لخطة منظمة للتطور مثل تلك التي خضعت لها مدينة بوسطن النظامية التي تنتمي إلى الطبقة المتوسطة ، فلم يكن أى قانون للتقدم ينطبق عليها ، ولا حتى التابع الزمنى - الذى يعد الملجأ الأخير للمؤرخين الذين لا حول لهم ولا قوة - أصبح بذى قيمة . لم تعد السوق تؤدي إلى الفاتيكان كما لم يعد الفاتيكان يؤدي إلى السوق » ويستشهد آدامز بإدوارد جيون الذى يجربنا فى سيرته الذاتية عن تلك اللحظة التى جلس فيها على درجات سلم إحدى كنائس روما يصغى إلى ترانيم المساء ، فقد قرر فى تلك اللحظة أن يكتب تاريخ انهيار وسقوط الإمبراطورية الرومانية لكن وحيأ من هذا النوع لم يطرأ على ذهن آدامز .

وموجز القول أنه عاد إلى أمريكا وإلى الأحداث التى بدت أنها تنذر بانهار وسقوط الولايات المتحدة . كان إبراهيم لينكولن قد تم انتخابه رئيساً للجمهورية ، وكان الجنوب على وشك أن ينسحب من الاتحاد . واختار لينكولن تشارلز فرانسيس آدامز - والد هنرى - لكى يكون وزيراً مفوضاً لدى إنجلترا واصطحب هنرى أباه إلى لندن بصفته سكرتيراً خاصاً له . وتتركز فصول الكتاب من الثامن إلى الخامس عشر أساساً على الجهود الدبلوماسية للأب والمغامرات الاجتماعية والفكرية للابن . وإنه لمن الأفضل الاعتراف بأنها كانت - وذلك باستثناء واحد منها - أقل الفصول إقناعاً وإشباعاً فى « تربية هنرى آدامز » .

كان الفصل الخامس عشر هو هذا الاستثناء ، وكان بعنوان « الداروينية » . فى هذا الفصل يقدم آدامز واحداً من أهم الرموز : سمكة التيراسبس التى يقول عنها آدامز إنها ابنة عم سمكة الكافيار ! فعندما كان يبحث عن مدخل لدراسة نظريات داروين ، اختار آدامز دراسة الجيولوجيا تحت إشراف سير تشارلز لايل . وبالتهكم المعروف عنه يعبر آدامز عن النظرة المعاصرة للتطور بقوله : « لقد كان التطور غير المتقطع فى ظل ظروف موحدة مصدراً لسرور كل إنسان ما عدا القساوسة والأساقفة ؛ فقد كان أفضل بديل للدين ، أى قانون إلهى عام وشامل ومضمون ومحافظ وعملى . » كان التطور نظرية مقبولة لكنها ذات صعوبات فكرية ، لكن سرعان ما اكتشف آدامز أشكالاً مثل حشرات الخشب التى لم تتغير بطول الزمن الجيولوجى .

أما سمكة « التيراسبس » فما زالت أكثر من لغز : فقد كانت أولى الفقريات ، وقبل أن يوجد « السديم الأبدى » وهو اصطلاح يقصد به آدامز بالتأكيد إيجاءات من الإنجيل . ومثل الأطفال الذين قيل لهم : إن الله خلق العالم ؛ فسألوا حينئذ : ومن خلق الله ؟

تعلم آدامز أن الإنسان تطور من سمكة « التيراسبس » . لكن لم يستطع أحد أن يخبره من أين جاءت سمكة « التيراسبس » . أما إذا كان علم الأحياء في القرن العشرين قادراً على تقديم الإجابة فهذه ليست قضيتنا الآن ؛ فقد أمسك آدامز برموزه واستخدمها في تدعيم حجته في أن « التطور . . لم يتطور ؛ والوحدة النمطية . . لم تكن نمطية ؛ والاختيار . . لم يجر » . هذا إذا استخدمنا كلماته بالنص . وقد ظهرت « التيراسبس » و « حشرات الخشب » مرات أخرى في الفصول التالية ؛ لكي تطارد آدامز وتفرض وجودها عليه ، وتمده باستعارات جديدة .

عادت أسرة آدامز إلى الولايات المتحدة في عام ١٨٦٨ . وكانت الأمة قد تغيرت تغيراً أذهل آدامز . ووقع اختياره على استعارة لا تمت إلى الثقافة الأمريكية بصلة لكي يصف بها ذهول أسرته . قال : « وإذا كانوا بمثابة تجار قدموا من مدينة تاير في عالم ألف قبل الميلاد وهبطوا من قارب قدم على التو من جبل طارق - فمن الصعب أن نقول : إنهم كانوا غرباء على شاطئ عالم تغير إلى هذا الحد مما كان عليه منذ عشر سنوات مضت ! »

كانت الأمة التي ساعد جون آدامز في تأسيسها قد أصبحت الآن بين يدي البارونات اللصوص ! « أي رجال الصناعة الذين اعتبروا القارة غنيمة استولوا عليها بحماس بربرى ! كاثت الأمة مدينة لشركات السكك الحديدية ، وكان الفساد قد استشرى بين أعضاء الكونجرس لدرجة تشيع اليأس في النفس تماماً . وعندما طلب آدامز من أحد مديري الحكومة أن يتجمل بالصبر في معاملته للكونجرس - صاح المدير الحكومي قائلاً : « إنك لا تستطيع أن تكون مهذباً مع أى عضو في الكونجرس ! إن هذا العضو خنزير ! ولا بد من أن تتسلح بعضاً لكي تضربه بها على فمه ! »

وكان يولييس س . جرانت رئيساً للجمهورية في ذلك الوقت وترك آدامز العنان لخواطره لكي تحيط بالجوانب الغامضة لهذه الحقيقة : « لم يعد لأمرىكا أية حاجة لاستخدام آدامز لانتهائه إلى القرن الثامن عشر ، ومع ذلك فهي تتعبد في محراب جرانت لأن الزمن قد عفا عليه وكان من المفروض أن يعيش في كهف وأن يلبس الجلود ! » في مواجهة دليل دامغ مثل يولييس س . جرانت أصبحت نظرية التطور مثيرة للاستهزاء والسخرية !

وفي عام ١٨٧٠ تحول الذهول والإحباط إلى حزن عظيم ، فلقد استدعاه زوج أخته بريقية إلى إيطاليا حيث كانت أخته لويزا تصارع الموت بمرض التيتانوس. وخارج غرفتها كان الصيف الإيطالي بكل نعومته في حين جثم الرعب في داخلها. كتب آدامز يقول : « كان آخر درس ، آخر مرحلة من مراحل التعليم - قد بدأ حينئذ لقدعاش عبر ثلاثين عاما من الخبرة المتنوعة إلى حد ما بدون أن يشعر في مرة ما أن قوقعة الحياة العادية قد انكسرت ! فلم يكن قد رأى الطبيعة إطلاقا ، إذ إن عينيه لم تحترقا السطح الذي هو بمثابة غطاء السكر الذي تظهره للشباب . فجأة صفعه هذا الإحساس على وجهه بكل وحشية الزمن القاسي ، واستمر معه رعب الصفعة طول حياته بعد ذلك ، بل إن التكرار جعله يتضاعف إلى درجة لم تستطع فيها الإرادة أن تصارعه فقد كان أثقل مما تستطيع نفسه أن تحتمل » رأى الطبيعة الآن عبارة عن « خليط من قوى الفوضى وانعدام الهدف » وبعد ذلك لخص في سيرته الذاتية الدرس في جملة من أشهر جملته المأثورة : « الفوضى هي قانون الطبيعة في حين أن النظام هو حلم الإنسان » .

ويصف ما تبقى من الكتاب سعيه الحثيث وراء ذلك الحلم : فقد أصبح مؤرخاً وقضى فترة وجيزة في التدريس بجامعة هارفارد ، كما نشر عدداً من الكتب في التاريخ الأمريكي ، وكان أشهرها الجزء التاسع : « تاريخ الولايات المتحدة في أثناء إدارة كل من توماس جيفرسون وجيمس ماديسون » وكان التاريخ تأملات زاخرة بالتهكم من الفشل القومي : رأى آدامز في جيفرسون نموذجاً أمثل للمؤمن الليبرالي بالتقدم ، والرجل الذي يهدف إلى ترسيخ إيمانه على أسس من المنطق . وكان ماديسون شخصية على المستوى نفسه من التنوير ، وكان تلميذاً لجيفرسون كما كان خليفته في البيت الأبيض . كان هدفها صحيحاً ، لكن خططها سارت في الطريق الخطأ : فالحرب التي تجنبنا اندلاعها مع إنجلترا اندلعت بالرغم منها ، وأحرق البريطانيون مدينة واشنطن ، وبدا مبنى الكابيتول المدمر لآدامز رمزاً مناسباً لمصير التطلمات الساذجة . في هذا العمل كما في أعمال أخرى أثبت آدامز أنه يملك خيالا تاريخياً من أحسن طراز ، لكن السيرة الذاتية التي كتبت لتجسد فشل الكاتب درامياً - نادرا ما ذكرت إنجازاته الأكاديمية .

قاده سعيه الحثيث وراء النظام إلى معرض شيكاغو عام ١٨٩٣ حيث وجده مجرد « كسر لعنصر الاستمرار وخروج عن التتابع التاريخي » . في ذلك المعرض قرأ فردريك جاكسون تيرنر بحثاً ضمنه مفهومه لأهمية الحدود في التاريخ الأمريكي ، لكن آدامز تأثر أكثر بالتغيرات

التكنولوجية وبالطاقات التي تضاعفت في ظل الرأسمالية الصناعية. وتسجل « تربية هنري آدامز » صعود أصدقائه إلى القوة السياسية مثل جون هاى وثيودور روزفلت ، لكن القرارات السياسية التي اتخذت في تلك الأيام صدمت آدامز ؛ إذ بدت غير منطقية وغير مناسبة إذا ما نظر إليها في ضوء التغيرات في التكنولوجيا وفي النظرية العلمية وعندما بدأ في دراسة الرياضيات والفيزياء وجد في الفيزياء النظرية لكارل بيرسون تأكيداً لإحساسه الشخصي بوجود الفوضى . فيقتطف من بيرسون قوله : « النظام والمنطق ، الجمال والخير - كلها صفات ومفاهيم نجدتها فقط في ارتباطها بعقل الإنسان . » وفهم آدامز معنى إنجاز بيرسون على أن العالم يقوم بفرض النظام على دوامة من الذرات ولقد قرر بعزم متجدد أن يتفوق على الفيزيائي ، وأن يفرض نظاماً على حقائق التاريخ التي تبدو فوضوية لا رابط بينها !

وفي باريس في « المعرض العظيم » عام ١٩٠٠ وجد زوجاً آخر من الرموز : « العذراء والدينامو » وعلى حد قوله : « أصبح الدينامو بالنسبة لآدامز رمزاً للآفاق التي لا نهاية لها . وعندما اعتاد مشاهدة معرض الآلات العظيم أصبح يشعر بآلات الدينامو ذات الأربعين قدما كقوة أخلاقية مثله في ذلك مثل المسيحيين الأوائل في شعورهم تجاه الصليب . » ووراء الدينامو كمننت أسرار الإشعاع الغامض بحيث استطاع آدامز أن يتكلم عن نفسه - مستخدماً المحسنات البدعية - عندما استلقى على أرض « معرض الآلات » « فانكسرت رقبته التاريخية بفعل الاقترام المفاجئ لقوى جديدة كل الجدة » .

في مواجهة هذه القوى الجديدة وضع آدامز رمز العذراء . لقد جسدت العذراء مريم النصرانية قوى الحب . ويعلق بقوله : « سواء كانت رمزاً أم طاقة فقد قامت العذراء بدور أعظم قوة شعر بها العالم الغربي ، وجذبت أنشطة الإنسان إلى نفسها أكثر من أية قوة أخرى استطاعت أن تفعل هذا سواء كانت قوة طبيعية أو فوق الطبيعية ، لكن كيف استسلمت هذه القوة للقوى التي يرمز إليها الدينامو ؟ لكي يجيب عن هذا السؤال درس آدامز الفترة التي سادت فيها العذراء عقول البشر ، وهي القرن الذي امتد من ١١٥٠ إلى ١٢٥٠ بعد الميلاد . وكانت تلك هي اللحظة التي يستطيع منها « قياس الحركة الممتدة إلى عصره هو » وعندما يكتب عن تلك الفترة من حياته فإنه يقول : « عندما شرع في القيام بالمهمة بدأ بالجزء الذي يدرك عقله كل أبعاده والذي تمثل في « مونت * سان - ميشيل وتشارتريز : دراسة لوحدة القرن الثالث عشر » . من تلك النقطة رأى أن يحدد لنفسه مركزاً أطلق عليه : « تربية هنري آدامز : دراسة

لظاهرة التعدد في القرن العشرين» واعتماداً على نقطتي الالتقاء هاتين - كان يأمل عرض خطوطه لكي تنطلق إلى الأمام والخلف بلا قيود ، وتكون في الوقت نفسه عرضة للتصحيح من أي شخص آخر يعرف أفضل » وبمعنى آخر فقد أكد العناصر المعادلة ، وبدأ في تخطيط رسمه البياني .

درس نيوتن ولايبنتز وحاول استخراج حسابٍ للتفاضل والتكامل من القوى التاريخية ؛ لكي يضاهاها بأوصافها الرياضية في السرعة ومعدل تزايدها. وفي سيرته الذاتية - كما في مقالاته الأخرى - تتبع منحني التغير التاريخي ، وأكد أن الحركة من الوحدة إلى التعدد من ١٢٠٠ إلى ١٩٠٠ كانت في معدل سرعتها أزيد من المقدر بحيث يحتاج الجيل التالي إلى ما يمكن أن يسمى « بالعقل الاجتماعي الجديد ». وبتبنيته بنتائج اكتشاف الطاقة النووية رأى مرة أخرى التغير أكثر من التقدم ، والتهديد بالانقلاب أكثر من الوعد بعالم مثالي (يوتوبيا) . ولم يقدم تنبؤات أخرى حول النتائج النهائي للنمو التاريخي ، كما سمح لنفسه أن يأمل أن المستقبل ربما احتوى على « عالم لا ينظر إلى الطبائع الحساسة والوديعه وهو يهز كتفيه في لامبالاة » على حد قوله . لكن الأمل يبدو غير ذي موضع في تربية هنري آدامز « تماماً مثلما لا يوجد في صندوق باندورا الشهير في الأساطير الإغريقية والذي لم يكن يحمل لمن يفتحه سوى الشر .

وعلى أية حال فيجب ألا نأخذ تنبؤاته على محمل أكثر جدية من نظرته هو إليها . وبالرغم من استخدامه هذا كله للنظريات العلمية فقد ظل فناً بصفة أساسٍ ، وربما كان فناً رومانسياً أيضاً . وعلى كل فقد كانت النظرية الديناميكية للتاريخ والتي اقترحها واحدة من نظريات كثيرة ممكنة . ولعل النقطة الهامة هنا تكمن في أنه استغلها في خلق نظامه الخاص به من وسط الفوضى المحيطة به . ففي « تربية هنري آدامز » كتب يقول : « إذا كان لكل إنسان يحترم نفسه بما فيه الكفاية أن يصبح فعالاً مؤثراً - ولو كمجرد آلة فقط - فإن عليه أن يضع نفسه بنفسه في الاعتبار بطريقة ما ، وأن يبتكر المعادلة الخاصة به في الكون الذي يعيش فيه ، إذا وجد أن المعادلات السائدة قد فشلت في القيام بهذه المهمة ». وفي الاستعارة التي يستخدمها بنفسه ، فإن نظريته ليست حقيقة مطلقة ، لكنها كانت مجرد « بكرة لكي يلف عليها خيط التاريخ دون أن يتقطع » وكان الخيط الذي قصد به آدامز المادة التاريخية خيطاً حقيقياً بما فيه الكفاية ، لكن البكرة كانت قد فصلت أو صنعت خصيصاً لخدمة غرضه في حين كان التصميم الذي نسجه من صنعه هو شخصياً . وقد أكد آدامز أن « أي تلميذ في المدرسة في استطاعته أن يحسم

المشكلة إذا ما منح الحق في تحليلها بأدواته وأساليبه الخاصة ، وليست هذه سوى نموذج آخر للتهكم الذى يستخدمه !

ومن ثم فإنه تم تحديرننا بما فيه الكفاية . إن « تربية هنرى آدامز » كتاب غير عادى لأنه عبارة عن النظام الذى استخرجه رجل غريب ومدهش من حياته وعصره . إنه يستبعد قدراً كبيراً من الأشياء ؛ كما أثبت لنا إيرنست صامويلز فى سيرة هنرى آدامز التى كتبها عنه فى ثلاثة أجزاء . لكى نقتنص مثالا فريداً على هذا فإننا نعرف من صامويلز أن التمثال الرمزي للحزن والأسى له من الدلالة ما يتعدى الحدود التى رسمت له فى السيرة الذاتية . إن آدامز يشير إلى التمثال البرونزى الذى أقامه أوجستس سان جودينز والذى يظل على الكثير من الناس الذين يأتون إلى جبانة روك كريك لكى يضمنوا المعنى الكامن وراء هذا التمثال ؛ فهو يسقط عن عمد القول بأنه كان نصباً تذكاريّاً لزوجته التى انتحرت فى عام ١٨٨٥ ، وذلك بعد فترة وجيزة من وفاة أبيها . ونحن نعرف من الرسائل والوثائق الأخرى أن فقدته لها كان فقداناً مأسوياً كفقدان أخته تماماً ، ومع ذلك فقد اختار أن يحدف أى ذكر له من سيرته الذاتية .

وليس هناك سبب للدهشة أو خيبة الأمل من جراء هذا أو من جراء حذف الأشياء الأخرى ؛ فإن ما نحصل عليه فى أية سيرة ذاتية هو العمل الفنى القائم على حياة الإنسان . وكان هنرى آدامز بالقدر نفسه من الحساسية والذكاء الذى تمتع به أسلافه الذين تولوا رئاسة الجمهورية . وعلى أية حال فإذا كانت حياته تبدو فاشلة فإن سيرته الذاتية لم تكن كذلك بصفتها عملاً فنياً . وبعد خمسين سنة من وفاته فإن تنبؤاتها كلها مازلت مقنعة .